من رسالـة جاحظية في تفضيل البطن على الظهر

تحقيق : شـارل بـلا (Charles Pellat)

يتضمن مخطوط المتحف البريطاني رقم 1129 فيما يشتمل عليه من آثار الجاحظ قطعًا متفرقة من رسالة وجيزة في تفضيل البطن على الظهر قد رأيت أن أنشرها بدون تعليق لوضوحها وسهولتها فان مضمونها يؤكّد ما أبداه أبو عثمـان من الآراء في كتابه الموسوم بمفاخرة الجواري والغلمان .

شارل بـلاّ

***

عصمنا الله وإيّاك من الشُّبهة وأعاذَنا وإيّاك من زَيْغ الهوى ومَضَلاّت المُنَى ، ووهب لنا ولك تأديبًا (1) مُؤدّيًا إلى الزيادة (2) في إحسانه وتوفيقًا مُوجبًا لرحمته ورضوانه .

وقد كان كتابك — يا ابن أخي وفّقك الله — ورد عليّ تَصِفُ فيه فَضيلة الظهور وصفًا يدلّ على شَغَفك بها وحُبِّك إيّاها وحنينك إليها

---

(1) خط : بأدبنا .

(2) خط : الزيادة المودية .

وإيثارِك لها ، وفهمتُه ؛ فلم تمنع ـ أعـاذ الله من عَدَمك ـ من الإجابة عن كتابك في وقت وُروده إلاّ عوارضُ أشغالٍ مانعة وحوادثُ من التصرُّف والانتقالِ من مكان إلى مكان عائقة ؛ ولم آمنْ ، لو (3) تأخّر الجواب عليك أكثر ممّا تأخّر ، أن يسبِق إلى قلبك (*) أنّـي راضٍ (4) باختيارك ومسلِّمٌ لمذهبك وموافِـقٌ لك فيه ومساعدٌ (5) لك عليه ومُنقادٌ معك فيما اعتقدتَ منه ومُجدّ في طلبه ومحرّضٌ (6) عليه ؛ فبادرتُ بكتابي هذا مُنَبِّهًا لك عن سِنَةِ رُقدتك وداعيًا إلى رُشدك ؛ فإنك تعلم ، وإن كنتَ لي في مذهبي مخالفًا وفي اعتقادي مباينًا (7) ، أن اجتماع المتباينيْن فيما يقع بصلاحهما أولى في حكم العقـل وطريق المعرفة ممّا (8) أبادهما وعاد بالضَّرَر في اختيارهما عليهما ؛ وأنا ، وإن كنتُ كشفت لك قِناعَ الخلاف وأبديت (9) مكنون الضمير بالمضادّة ، وجاهدتَني بنُصرة الرأي والعقل (10) في حبّ الظهور وتلفيق الفضائل لها ، غيرُ مستشعر لليأس (11) من رجعتك ولا شاكٌ في لطائف حِكمتك وغوامِـضِ فِطنتك ، وقد أعلم أنّ معك ـ بحمد الله ـ بصيرةَ المعتبرين وتمييز الموفّقين ، وأنك إذا أمعنتَ فكرًا وبحثًا ونظرًا رجعتَ إلى أصلٍ قوي الانعقاد (12) والمواثقة ولم تتورّط (13) في اللَّجاج فعلَ المعجَبين ولم يتداخلك غِرَّةُ المنتحلين ؛ فإنّا رأينا قومًا انتحلوا الحكمة وليسوا من

---

(3) خط : ان لـو .
(4) خط : في ارضي .
(5) خط : ماعد .
(6) خط : محرص .
(7) خط : متباينا .
(8) خط : فيما .
(9) خط : او بدات .
(10) خط : العقد .
(11) خط : للناس .
(12) خط : الانقياد .
(13) خط : يتورط .

أهلها ، بل هم أعلام الدعوى وحلفاءُ الجهالة وأتباع الخطإ وشيَع الضلالة وخوَل النقص ، الذين قامت عليهم الحُجّة بما نحلوه أنفسهم من اسمها وسلبوه من فهم عظيمِ قدْرها ومعرفةِ جليلِ خطَرها ، ولم يُجْلوا الرَّيْن عن قلوبهم والصَّدأ (14) عن أسماعهم بالتنقير والبحث والتكلُّف ، ولم ينصبوا في عقولهم لأنفسهم أصلاً ينون عليه [ويعتمدون] في اعتقادهم عليه ويرجعون عند الحيْرة (15) في اختلاف آرائهم إليه ، فضلّوا وأصبح الجهلُ لهم إماما والسُّفهاء لهم قادةً وأعلاما .

ونحن نسأل الله بحوْله وطوْله ومنّه أن لا يجعلك من أهل هذه الصفة وأن يُريَك الحقَّ حقًّا فتتَّبعَه والباطلَ باطلاً فتجتنبَه ، وأن يعُمّنا ببركة هذا الدعاء وجماعةَ المسلمين ، وأن يأخذ الخيرُ بنَواصينا ويجمع على الهدى قلوبَنا ويؤلّف فيه ذات بيْننا .

فإنّك — ما علمت ، وأتقلّد في ذلك أمانة القول — ممّن أحِبّ موافقته ومخالطته وأن يكون (16) في فضله مقدَّمًا وعن كلّ عضيهةٍ منزَّهًا ؛ وما أعلمُ حالاً أنا عليها في الرغبة لك فيما أرغب لنفسي فيه والسرورِ بتكامُل أحوالك واستواءِ مذهبك وما أزيَّن به من إرشادك ونصيحتك وتسديدك وتوفيقك ، إلاّ وصدق الطويّة منّي فيها أبلَغُ من إسهابي في فضل صِفتك ؛ والله تعالى المُعين والمؤيِّد والموفِّق والمُبدع وحدَه لا شريك له ، والحمد لله كما هو أهله وصلى الله على محمد وآله وسلّم كثيرًا .

يا أخي — أرشدك الله — إنك أغرقتَ في مدح الظَّهر من الجهة التي كان ينبغي لك أن تؤخِّرها ، وآثرتها وهي محقوقة بأن ترفُضها ، وما رأينا هلاك الأمَم الخالية من قوم لُوط وثَمود وأشياعهم وأتباعهم وحلول

---

(14) والصدى .

(15) خط : الخبرة .

(16) خط : تكون .

الخَسفْ والرَّجفة والآيات المهوِّلات(17) والعَذاب الأليم والريح العقيم والغيير والنَّكير ووجوب نار السعير إلاّ بما دانوا به من اختيار الظهور ، قال الله تعالى في قصّة لوط (18) : (أتَأتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ العَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أزْوَاجِكُمْ بَلْ أنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ) ؛ فذمَّهم الله — تبارك وتعالى — كما ترى وبلغ بهم في ذِكر ما استعظم من عُتوّهم إلى غايةٍ لا تُدرك صِفتُها ولا يوقَف على حدّها ، مع آي كثيرة قد أنزلها فيهم وقِصصٍ طويلة قد أنبأ بها عنهم وروايات كثيرة بأثَرها فيمن كان من طبقتهم ؛ وسنأتي منها بما (19) يقع به الكفايةَ دون استفراغ الجميع ممّا حملتْه الرواة ونقله الصالحون .

[...] والحقّ بيّن لمن التمسه والمَنْهَج واضِح لمن أراد أن يسلكه ؛ وليس في العنود دَرَك ولا مع الإغرام فلْج ،والرجوع إلى الحقّ خير من التمادي في الباطل ، وتركُ الذنْب أيسرُ من التماس الحُجّة ، كما كان غَضُّ الطَّرف أهونَ من الحنين إلى الشهوة ؛ وبالله تعالى التوفيق .

[...] نبدأ الآن بذكر ما خصّ الله به البطون من الفضائل ليرجعَ راجع ويُنيبَ مُنيب مفكِّر وينتبهَ راقد ويُبصرَ متحيِّر ويستغفرَ مُذنب ويستقيل مخطىء وينـزعَ مُصرّ ويستقيمَ عاند ويتأمّلَ غُمْر ويرشُدَ غويّ ويعلمَ جاهل ويزدادَ عالم : قال الله — عزّ وجلّ — فيما وصف به النحل (20) : (يَخْرُجُ من بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ ألْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ) ؛ وبُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في خير بطون قُرَيْش ؛ ووجدنا الأغلب في صفة الرجل أن يقال إنّه معروف بكذا « مذ خرج من بطن أمّه » ولا

(17) خط : المنولات .
(18) سورة الشعراء ، 26 : 165—166 .
(19) خط : ما .
(20) سورة النحل ، 16 : 69 .

يقال : « من ظهر أبيه » ؛ ويقال في صفات النساء : « قُبُّ البطونِ نواعم» ويقال : « خُمصانة البطن » ولا يقال : « خمصانة الظهر » ؛ ويقال : « فلان بطن بالأمور » ولا يقال « ظهر » ؛ ويقال : « بِطانة الرجل وظِهارته » فيُبدأ بالبطانة ؛ وبطن القرطاس خيرٌ من ظهره ، وبطن الصحيفة موضع النفع منها لا ظهرها ، وببطن القَلَم يُكتب لا بظهره ، وببطن السِّكّين يُقطع لا بظهرها ؛ وخلق الله — عزّ وجلّ — آدَم من طين ورُسُلَه من بطن حَوّاء ؛ ورأينا أكثر المنافع من الأغذية في البطون لا في الظهور : فبطون البقرة أطيب من ظهورها ، وبطن الشاة كذلك ؛ ومن فضل صفات عليّ (رضَه) أن كان أخمَص بطنًا (21) ؛ واسمع من غِنائهم :

[سريع]

بطني على بطنِكِ يا جاريهْ   لا تَمَطًّا نبغي ولا باريهْ

ولم يقل : « ظهري علي ظهرك » ، فجعل محاسّة البطن للبطن غانيًا عن الوِطاء كافيًا من الغِطاء ؛ ولو لم يكن في البطن من الفضيلة إلاّ أنّ الوجه الحسن والمنطق الأنيق من حيِّزه ، وفي الظهر من العيب إلاّ أن الدُّبُر في جانبه ، لكان فيها أوضحُ الأدلّة على كرم البطن ولؤم الظهر ؛ ولم نَرَهم وصفوا الرجل بالفحولة والشجاعة إلاّ من تلقائه وبالخَنَث (22) والأُبنة إلاّ من ظهره؛ وإذا وصفوا الشجاعة قالوا : « مرّ فلان قُدُمًا » ، وإذا وصفوا الجبان قالوا : « ولّى مُدبِرًا » ؛ ولشتّانَ [ما] بين الوصفين : بين مَن يلقى الحرب بوجهه وبين مَن يلقاها (23) بقفاه ! وبين الناكح والمنكوح، والراكب والمركوب ، والفاعل والمفعول ، والآتي والمأتيّ ، والأسفل والأعلى ، والزائر والمَزور ، والقاهر والمقهور !

(21) خط : بطينا ، والبطين ضد الأخمص .
(22) خط : بالخبث .
(23) خط : يلقاه .

ولمّا رأينا الكُنوز العاديّة والذخائر النفيسة والجواهر الثمينة مثل الدُّرّ الأصفر والياقوت الأحمر والزمرُّد الأخضر والمِسْك (24) والعَنْبَر (24) والعِقيان واللُّجَيْن والزِّرْنيخ والزئبق والحديد والبَوْرق والنفط والقار وصنوف الأحجار ، وجميعَ منافع العالم وأدَواتِهم وآلاتهم لحربهم وسِلمهم وزرْعهم وضرْعهم ، ومنافعَهم ومرافقَهم ومصالحَهم وسائر ما يأكلونه ويشربونه ويلبسونه ويشمّونه وينتفعون برائحته وطعمه ، ودائعَ في بطون الأرض وأنّها (25) تُستنبط منها استنباطًا وتُستخرج منها استخراجًا ، وأنّ على ظهرها الهوامّ القاتلة والسِّباع العادية التي في أصْغرها تَلَف النفوس ودواعي الفَناء وعوارضُ البلاء ، وأنه قلّ ما يمشي على ظهرها من دابّة إلاّ وهو للمرء عدوّ وللموت رسول وعلى الهلكة دليل، لم تمتنع (26) عقولنا وآراؤنا ومعرفتُنا (27) من الاقرار بتفضيل البطن على الظهر في كلّ وقت وعلى كلّ حال .

ومن فضيلة البطن على الظهر أنّ أحدًا إن ابتُليَ فيه بداء (28) كان مستورًا وإن شاء أن يكتمه كتمه عن أهله ومَن لا ينطوي عنه شيءٌ من أمره وغابر دهره ؛ ومن بليّة الظهر أنه إذا كان (*) فيه داءٌ (29) ظَهَر وبان، مثل الجَرَب والسِلَع (30) والخنازير (31) وما أشبهها ممّا سلمتْ منه البطون وجُعل خاصًّا في الظهور .

---

(24) يعلم الجاحظ أن المسك والعنبر لا يخرجان من بطن الأرض !

(25) خط : وانما .

(26) خط : يمتنع ، تركيب الجملة : ولما رأينا الكنوز ... وجميع منافع العالم ... ومنافعهم .. ودائع ... وأنها تستنبط ... وأن على ظهرها ... وأنه قل ... لم تمتنع عقولنا .

(27) خط : وارانا معرفتنا .

(28) خط : بداه ان .

(29) خط : ذا .

(30) السلعة ضرب من الخراج في العنق (scrofule)

(31) الخنازير غدد تحدث في العنق (écronelles)

وفضّل الله تعالى البطون بأن جعل إتيان النساء وطَلَب الولد والتماس الكثرة مباحًا من تلقائها (32)، محرّمًا في المحاشّ من ورائها (33)، لأنه حرام على الأمّة إتيان النساء في أدبارهنّ بما جاء في الحديث عن الصادق صلى الله عليه وسلم: «لا تأتوا النساء في محاشّهنّ» (34).

وقد ترى بِطانة الثوْب تقوم بنفسها ولا ترى الظِهارة تستغني؛ وجعل الله تعالى البطن وِعاءً لخير خلقه محمد صلى الله عليه وسلم، ثم جعل أوّلَ دلائل نبوّته أن أهبط إليه ملَكًا حين أيْفع (35) وقد (36) تدرّج مع غلمان الحيّ في هَوازن وهو مسترضَع في بني سَعْد، حتّى (37) شقّ عن بطنه ثم استخرج قلبهُ فحُشي نورًا ثمّ ختُم بخاتم النبوّة؛ ولم يكن ذلك من قِبَل الظهر.

[...] وممّا فُضّلت به البطون أن لحم السُّرّة من الشاة أطيَب اللحم، ولحم السرّة من السمك لموصوف (38)، وسرّة حمار الوحش شِفاءٌ يُتداوَى بها؛ ومن سرّة الظِباء يُستخرج المِسْك؛ وهذا كلّه خاصّ بالبطون (39)، ليس للظهور منه شيء.

وبدأ الله — عزّ وجلّ — في ذكر الفواحش بما ظهر منها ولم يبدأه بما بطن، فقال (40): (إنّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ومَا بَطَنَ)، فجعله ابتداءً بالذمّ؛ والظهر في أكثر أحواله سَمْج، والبطن في أكثر أحواله حسن؛ والظهر في كلّ الأوقات وحشة ووحْش، والبطن

(32) كذا، والضمير عائد إلى النساء.
(33) كذا، والضمير عائد إلى النساء.
(34) راجع لسان العرب (حشش).
(35) خط: ايقع.
(36) خط: وهو مع.
(37) خط: حين.
(38) خط: الموصوف.
(39) خط: للبطون.
(40) سورة الاعراف، 7 : 33.

في كلّ الأوقات سَكَن وأنْس ؛ ولم تَرَهم حين بالغوا في صفات النساء بدؤوا في ذكرها إلاّ من جهة البطن ، فقالوا : « مُدْمَجة الخَصْر » ، « لذيذة العِناق » ، « طيّبة النَّكْهة » ، « حُلوة العينيْن » ، « ساحرة الطَّرْف » ، « كأن سُرّتَها مُدْهُن » ، و« كأن فاها خاتم » ، و« كأن ثدييْها حُقّان » ، و« كأن عنقَها إبريق فِضّة » ؛ وليس للظهور في شيء من تلك الصفات حظّ .

وأنّى نبلغ في صفة البطون وإن أسهبنا ، وكم عسى أن نُحصِيَ من معايب(41) الظهور وإن اجتهدنا وبالغنا؟ ألا ترى أنّ حدّ الزاني ثمانون جَلدة ما لم يكن مُحصَنًا ، وحدّ اللوطي أن يُحرق (42) ،وكلاهما فجور ورجاسة وإثم ونجاسة ؟ إلاّ أن أيسر المكروهيْن أحقّ بأن يميل إليه مَن ابتُلِيَ ، وخير الشرّيْن أحسن في الوصف من شرّ الشرّيْن ؛ ولو أنّا رأينا رجلاً في سوق من أسواق المسلمين يقبّل امرأة ، فسألناه عن ذلك فقال : « امرأتي » وسألوها فقالت : « زوجي » ، لَدَرَأنا عنهما الحدّ لأنّ هذا حكم الإسلام ؛ ولو رأيناه يقبّل غلامًا لأدّبناه وحبسناه لأن الحكم في هذا غير الحكم في ذاك ؛ ألا ترى أنّه ليس يمتنع في العقول والمعرفة أن يُقبّل الرجل في حبّ ما ملكت يمينُه حتّى يقبّلها في الملاء كما يقبّلها في الخلاء ؛ يصدّق ذلك حديث ابن عُمَر : « وقعت في يدي جاريةٌ يوم جَلولاء (43) كأن عنقها إبريق فضّة ، فما صبرت حتّى قبّلتها والناس ينظرون » .

[...] وقد رابنا منك أيّها الرجل إفراطُك في وصف فضيلة الظهور وفي مَحَلّ الريبة وقعتَ لأنّا رُوينا عن عُمَر أنه قال : « مَن أظهر لنا خيرا ظننّا به خيرًا ، ومَن أظهر لنا شرًّا ظننّا به شرًّا » ؛ وإنما يصف فضل الظهر

(41) كذا ، وقد أراد الجاحظ : محاسن الظهور .
(42) لست أدري من أين وقع للجاحظ أن اللوطي يحرق ، وحده أن يرجم .
(43) خط : حلولا .

مَن كان مُغرَماً بحبّ الظهور وإلى ركوبه صبّاً (44) وبالنوم عليه مستهتراً وبالولوع بطلبه موكّلاً ، ومَن كان للحلال مباينًا ولسبيله مفارقًا ولأهله قاليًا وللحرام معاودًا وبحبله مستمسكًا وإلى قرفه (45) داعيًا ولأهله مواليًا ؛ وقد اضطررتَنا بتصييرك المفضولَ فاضلاً والعامَّ خاصًّا والخسيسَ نفيسًا والمحمودَ مذمومًا والمعروفَ منكرًا والمؤخَّرَ مقدَّمًا والمقدَّمَ مؤخَّرًا والحلالَ حرامًا والحرامَ حلالاً والبدعةَ سُنَّةً والسنَّةَ بدعةً والحظْرَ إطلاقًا والإطلاق حظرًا (46) والحقيقةَ شبهةً والشبهةَ حقيقةً والشيْنَ زيْنًا والزين شينًا والزجرَ (47) أمرًا والأمرَ زجرًا والوهمَ أصلاً والأصلَ وهمًا والعلم جهلاً والجهلَ علمًا ، إلى أن أدخلْنا عليك الظِنّة وألحقناك التُّهمة ونسبناك إلى غير أصلك ونحلناك غير عقيدتك وقضينا عليك بغير مذهبك ، ويَداك أوكَتا وفوك (48) نَفَخَ ؛ فلا يُبعدِ الله غيرك !

أوجدْنا أيّها الضالّ المُضلّ ، المغلوب على رأيه ، المسلوب فهمُه ، المولّى على تمييزه ، الناكص على عقبه في اختيار الموافق لأصل عقده ، المُدبرُ بعد الإقبال في معرفته ، الساقطُ بعد الهدى (49) في ورطته ، المتحلّي من فهمه ، الغنيّ عن إفهامه ، المضيعُ لحكمته ، المنزوعُ عقلُه ، المختلسُ لُبُّه ، المستطارُ جنانُه ، المعدوم بيانُه في الظهور ، بعد الفضائل التي أوجدناكها في البطون إمّا قياسًا وإمّا إخبارًا وإمّا ضرورةً وإمّا اختبارًا وإمّا اكتسابًا أو في كتابٍ منزّل أو سنّةٍ مأثورة أو عادة محمودة أو صلاحٍ على خير ، أم (50) هل لك في مقالتك من إمامٍ تأتمُّ بهً أو أستاذٍ تقتفي أثرَه وتهتدي بهُداه أو تسلك سنّتَه ؟

(44) كذا في الأصل مشددا ، وهو الصواب .
(45) خط : قربه .
(46) خط : خطرا .
(47) خط : والزاجر .
(48) خط : وقاك .
(49) خط : الهـوى .
(50) تركيب الجملة : أوجدنا ... أم ؛ ولعل كلمة سقطت بعد « أوجدنا » أو أراد بذلك : أصبنا وبلغنا الغرض .

[...] وقد حضّتْني عليك عند انتهائي إلى هذا الموضع رِقّة وتداخلتْني لك رحمة ووجدتُ لك بقيّةً في نفسي لأنّه إنّما يُرحم أهل البلاء ، والحمد لله الذي عافانا ممّا ابتلاك به وفضّلنا على كثير من خلقه تفضيلاً ! فرأيت أن أختم بأبسط الدعاء لك كتابي وأن أحرُزَ به أجْري وثوابي ، ورجوتُ أن تُنيبَ (51) وترجع بعد الجِماح واللّجاج ، فإن للجَواد استقلالاً (52) بعد الكبوة وللشجاع كرّة بعد الكَشْفَة وللحليم عَطفة بعد النَّبْوة ؛ وأنا أقول : جعلنا الله وإياك ممّن أبصر رُشده وعرف حظّه وآثر الإنصاف واستعمله ورفض الهوى واطّرحه ، فان الله تعالى لم يَبتلِ بالهوى إلاّ مَن أضلّه ولم يُبعد إلا من استبعده !

***

(51) خط : تثيب .

(52) الاستقلال : الارتفاع والنهوض .